مخاطر العصر وضرورة تواصل الأجيال

"أي بني: إني لأعلم أنك قد خلقت لزمن غير زمني، وربيت تربية غير تربيتي، ونشأت في بيئة غير بيئتي..."، بهذه الكلمات الحنونة على الابن، والعبارات الحانية عليه، يبتدئ المفكر العربي أحمد أمين- المعروف بأستاذ الأجيال- أولى رسائله لابنه المغترب إلى "انجلترا" للدراسة في حقبة الخمسينيات من القرن الماضي.

تحمل الكلمات دلالات عميقة، لا تشير فحسب إلى فطنة الأبوة، وإدراكها لضرورة التواصل مع الأبناء، واستمرار الحوار معهم، سواء في حالة القرب، أو في حالات البعد، وإنما تدل أيضا على فهم ذكي للفوارق العديدة بين جيل الآباء من ناحية، وجيل الأبناء من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من أنه لم يكن في عصر "أمين" شبكة انترنت قربت المسافات بين البلدان، ولا بريدا إلكترونيا يحمل الرسالة إلى الطرف الآخر، ويوصلها إليه في التو واللحظة، بمجرد الضغط على "أيقونة" الإرسال في لوحة المفاتيح الخاصة بجهاز الحاسوب، وغيرها من وسائل الاتصال العديدة المتاحة في عصرنا الراهن، والتي جعلت العالم اليوم "قرية واحدة"، بحسب تعبير عالم الاتصال "مارشال ماكلوهان"- على الرغم من عدم توفر شيء من هذه التسهيلات الاتصالية في ذلك العصر، إلا أن "الوالد" لم يتوقف عن التواصل مع "الابن" في بلد الاغتراب، رغم المسافات الفاصلة بينهما، فبحث عن وسيلة، تمكنه من مداومة هذا التواصل، حتى ولو لم يتم على نحو مباشر، كما كان عليه الحال قبل سفر "الابن"، ووجد "الأب" الأديب في الكتابة ضالته المنشودة، فكتب لابنه عددا من الرسائل القيمة، التي تحمل أفكارا إبداعية، ونصائح غالية، بما لا يعبر عن معنى الاتصال الإنساني فحسب؛ وإنما يجسد أيضا كيف يكون تواصل الأجيال، وأهميته في نقل تجارب السابقين للاحقين، ومن ثم؛ فهي –أي الرسائل- لا تزال صالحة حتى اليوم، بعد أن تم نشرها في كتاب بعنوان "إلى ولدي".

الحوار بشكل عام، هو هبة إلهية، اختص الله بها الإنسان من بين سائر مخلوقاته، وهو سمة حضارية من سمات الإنسانية، أما على مستوى الأسرة الواحدة، فالحوار يعتبر ضرورة حياتية، وهو من لوازم العيش السليم، والحياة الصحية، فحين يغيب الحوار بين أفراد الأسرة، يغشى الصمت حياتهم، وتحل بـ"البيت" حالة من الكآبة الموحشة، فتعيش الأسرة في عزلة قاتمة، أما إذا وصل الوضع إلى الحد الذي لا يعرف فيه الوالدان عن حياة الأبناء شيئا، ولا يعرف الأبناء عن حياة الآباء الكثير، فإن الجميع يبدون ساعتها، وكأنهم يعيشون في جزر منعزلة، وإن ضمهم جميعا سقف بيت واحد، واحتوتهم جدران واحدة.

وإذا كان الحوار الأسري على هذه الدرجة من الأهمية في كل زمان وفي كل مكان، وبالنسبة لسائر المجتمعات، ومختلف البلدان، فإن أهمية الحوار اليوم، لا يضاهيها أهمية أخرى، نظرا لتعقد الحياة، وكثرة الفتن التي تلحق مختلف جوانبها، فسبل الغواية عديدة، وطرق الظلال متعددة، ومنها ما يمثل –للأسف- تهديدا خطيرا لكيان الأسرة، ويتهدد وجودها

كلية، فما أسهل وقوع بعض الأبناء اليوم في مواطن الزلل، وما أسرع اقترابهم من مواطن الخطر، إذا لم يكن الأبناء والبنات محصنين بالتنشئة السليمة، ومحروسين بالتربية الصالحة.

يبدو الانشغال المستمر، هو سيد الموقف في حياتنا العصرية اليوم، أو على الأقل هو كذلك بالنسبة لعدد كبير من الناس، فالجميع مشغول طوال اليوم، ودوامة العمل لا تتوقف، وقد لا تكفي ساعات العمل لإنجاز ما علينا من واجبات، والوفاء بما علينا من التزامات، ناهيك عن سلسلة المطالب التي لا تنتهي. لكن هذا لا يعفينا –معشر الآباء والأمهات- من تحمل مسئوليتنا تجاه الأسرة، وأداء حقها الواجب علينا، فالاستثمار لا يعني فقط جمع المال، والبحث عن سبل مضاعفته، واستغلال الأوقات، لا يعني فقط حسن توظيفها فيما يعود علينا بالمال، فالاستثمار على الصعيد الأسري، هو أفضل أنواع الاستثمارات، وأجلها على الإطلاق، فهو استثمار في المستقبل، تعود فوائده على الأسر خاصة، وعلى المجتمع بوجه عام.

فوائد الحوار بين الأسرة عديدة، ومنها ما يتجاوز مجرد معرفة أخبار أفراد الأسرة، والقرب من البنين والبنات، وحل مشاكلهم، ودرئ الخطر عنهم قبل وقوعه، ومنحهم التوجيه والإرشاد، وإشاعة حياة أسرية سوية في المنزل، يضللها الحب، ويرفرف عليها التفاهم..- فوائد الحوار تتجاوز ذلك، إلى غرس ثقافة الحوار بمعناها الشامل في نفوس الأبناء، بحيث يصبح الحوار منهج حياة مكتمل، يسلكه الأبناء والبنات في شئونهم الخاصة، وأسلوبا يتبعونه في حياتهم بوجه عام، وحين يتعودون ذلك اليوم، ويتخذون من الحوار سبيلا لحل مشاكلهم الشخصية، فإنهم سيتبعون نفس المنهج غدا، حين يتقلدون المناصب على اختلاف مستوياتها، ويتصدرون الشئون العامة لبلادهم، فيجنبون مجتمعهم الوقوع في المكروه، ويدرءون عن بلادهم المخاطر، والتي قد تكون بسبب حمق أطراف أخرى، يغيب عنها ثقافة الحوار، وتسكنهم ثقافة العنف، والذي بسببه لحق ببلدانهم كثير من الخراب والدمار، وقانا الله جميعا شر ذلك، وجنب بلداننا الوقوع فيه.